شهيـــــد القرية

للاستاذ مصطفى أحمد فوده

« قصة شابين وفتاة: احدهما أراد أبوه أن يزوجه منها، لتكون أما زوجاً له، وأحبت هي الآخر وأحبها، وأرادت أن تزف اليه عروساً، فدبرت معه مكيدة تم لهما بها ما أرادا. »

لم يكن الحزن يعرف سبيله إلى قلب هذه الأم، ولم تكن هي الأخرى تقدر أنه سيعرف سبيله إلى قلبها في يوم من الأيام. ولكن المقادير لا تجرى كما نريد، بل تجرى كما تريد هي؛ والحزن لم يكتب على قلوب دون سواها، وإنما هو بلاء يصيب القلوب جميعا، لا فرق في ذلك بين قلب وقلب، إلا في نصيب أحدهما منه؛ فقد يقسو الحسن فلا يعرف رأفة ولا رحمة، وقد يترفق فيمس القلوب مسا هينا رفيقا، ولا فرق في ذلك كذلك بين قلب وقلب الا في الزمن الذي يصيب فيه الحزن أحدهما؛ فقد يتعجل به ويعرف سبيله اليه في شرخ شبابه، وقد يتأنى فلا يطرقه الا في سن الشيخوخة، وقد يقيم فيه لا يفارقه كأن بينهما عهدا لا يريد الحزن أن ينقضه

ذاقت هذه الأم مرارة الحزن، وعرفت تباريح الأسى حين وقفت إلى جوار وحيدها ابراهيم وهو يفارقها لا إلى عمله كما هي عادته عند كل صباح ولكن إلى لقاء ربه؛ وكان الموت حينذاك قد أراد أن يكون رفيقا بالفتى، فلم يمهله طويلا يتلوى على سريره حينا، ويغادره حينا آخر ليستلقى على الأرض، ثم يتركها ليطمئن إلى صدر أمه، وليحتويه ذراعاها، حتى يفارق الحياة أو تفارقه الحياة. وكأن الحزن قد أراد أن يكون قاسيا بالغ القسوة حين أبى إلا أن يستقر في قلب هذه الأم، حتى أنست اليه أخيرا، وأصبحت تجد فيه عزاءها وسلواها.

***

كان « ابراهيم » فتى من فتيان هذه القرية التي تقع غير بعيد من ترعة صغيرة تجرى في شرقها، والتي يعمل أبوه « شيخا لخفرائها » وكان هذا الفتى يحمل بين جنبيه قلبا كريما لم يكن ليحمله إلا أطهر الناس نفساً، وأنقاهم سريرة، وأخلصهم لحقوق ربه، وحقوق غيره وحقوق نفسه. ولم يكن كغيره من شباب القرية الذين يوزعون وقتهم بين عمل ضئيل وعبث كثير؛ وإنما كان يقضي نهاره كله في عمل يضنيه، وينفق ساعة أو بعض ساعة من ليله في السمر مع أمه، ثم ينهض إلى فراشه لينام نوما عميقا يكسبه عزماً وقوة، حتى إذا كان الفجر، ينهض من نومه ليؤدى فريضة الصبح، ثم يعتمد فأسه ويذهب إلى حقله. ولم يكن الفتى مع عمله هذا الكثير ليغفل أداء صلواته، وإنما كان حريصا على أدائها في أوقاتها، فكان سلوكه موضع إعجاب شيوخ القرية، يكبرونه إكبارا، ويثنون على أخلاقه أجمل ثناء؛ وكان سلوكه هذه نفسه موضع سخرية غيره من شباب القرية الذين فتنتهم زينة الحياة الدنيا، فكانوا ينقدونه مر النقد، ويبشرونه بالكهولة في غير أوان. ولكن الفتى لم يكن يفرح لثناء المعجبين، ولا يغضب لنقد الساخرين، وإنما كان يمضى في سبيله تلك التي رسمتها له المقادير ولم يرسمها هو لنفسه، والتي شاء أن تكون طاهرة طهر نفسه، نقية نقاء سريرته.

* * *

ولم يكن « ابراهيم » يجلس إلى أبيه إلا لماما، ولم يكن يراه في أغلب الأحيان إلا حينا يكون ذاهباً إلى عمله مع الصبح، ويكون أبوه حينذاك عائدا من حراسة القرية.

ولكن أباه لم يخرج ذات مساء إلى أزقة القرية ليشرف على انبثاث العسس في أرجائها. وإنما يجلس إلى ابنه وزوجه يأخذ معهما في أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعة، يحاول الفتى أن ينهض بعدها ليستريح مما أصابه من عناء العمل، ولكن أباه يستمهله قليلا ويخوض في الحديث عن « آمنة »

***

وآمنة هذه فتاة ممشوقة القوام، فائقة الحسن بارعة الجمال

ساحرة العينين ، طويلة الغدائر ، يفيض وجهها حيوية وأنوثة مات عنها أبوها وهى صغيرة . وأمها تعمل قابلة بالقرية ، تتردد على بيوت أعيانها فى مناسبة وفى غير مناسبة ، ولها من الجمال والفتنة ومن طلاوة الحديث وإتقانها لفنونه مايشجع زوجاتهم وبناتهم على إطالة الجلوس اليها ، والاستزادة من هذا الحديث الطلى الساحر

استمهل محمود ابنه ابراهيم قليلا ، وراح يخوض فى الحديث عن آمنة ، ولم يكن هذا الحديث محببا إلى نفس الفتى ، ولم يكن الفتى يقبل عليه إلا بسمعه ، أما قلبه فكان بينه وبين حديث أبيه حجاب صفيق .

قال الفتى وهو ينهض للنوم : « أكبر الظن يا أبتى أن بينى وبين الزواج أمدا طويلا ، لأنى لم أتهيأ بعد لهذه المخاطرة ، ولم آخذ عدتى بعد لهذه المعركة » فيجيب أبوه وهو يضحك « لقد ظلمت الزواج يابنى إذ سميته مخاطرة ، ورسمته فى صورة معركة . إن الزواج يابنى نعمة ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك :

وينهض الفتى بعد ذلك إلى فراشه ، ويحاول النوم ولكنه عبثا يحاول ! ! إن شيئا يحول بينه وبين النوم لم يألفه الفتى من قبل ، ولا يستطيع أن يجلو لنفسه حقيقة أمره ويحاول الفتى أن يهرب من هذه الفكرة التى ألمت به وألحت عليه ؛ فقد استقر فى نفسه أنه سيلقى حتفه على يدى هذه الفتاة

ومازالت هذه الفكرة تلح عليه ، وما زال هو يمعن فى محاولة الهروب منها حتى استطاع أن يظفر بقسط ضئيل من النوم فى الهزيع الأخير من الليل . ولكن الفتى مع ذلك يستيقظ على صوت رفيق رقيق « الله أكبر ، الله أكبر . . . » فينهض ليؤدى صلاة الصبح كما هى عادته ويتناول فطوره ، ويحزم غداءه فى منديله ، ويعتمد فأسه ، وينصرف إلى عمله ليشارك زملاءه فى عمل الحقل . . . ولكنهم يلاحظون أنه على غير عادته ، فهو مهموم حزين ، أو كالمهموم الحزين ، وهو مطرق ، مفكر دائم التفكير ؛ واجم مغرق فى وجومه ؛ مزور عنهم وعن الحديث اليهم كل ازورارا .

وبينما هو يجلس وحيدا كئيبا ، يتناول غداءه تحت شجرة على غير عادته — فقد عود اخوانه أن يشاركهم حلقتهم تلك التى تكتملهم ، لا للحديث فى شأن من شئون الزراعة ولكن لملء بطونهم بشهى الطعام — بينما الفتى يجلس وحيدا كذلك إذا بأحد زملائه ينهض اليه يسأله عن سبب إطراقه ووجومه ، فيجيب « ابراهيم » فى غير تردد : « والله يا « سعيد » لقد كان من أبى ليلة أمس مالم أكن أتوقع . فقد عرض على أن يزوجنى من آمنة ، بنت قابلة القرية ، تلك الفتاة الساحرة الفاتنة ، الساخرة بقلوب الشباب ، اللاعبة بعواطفهم . ولا يخفى ياصاحبى أن أمها أصبحت بعد أن مات عنها زوجها ، مطمع الأنظار والقلوب . ولست أدرى ، أى شقاء ينتظرنى لو يصر أبى على رأيه هذا !

وما يكاد « إبراهيم » يختم حديثه إلى « سعيد » حتى ينهض هذا الأخير وفى عينيه بريق الهموم ، وعلى وجنتيه احمرار الحنق ، وينصرف عنه وفى قلبه غيظ مكتوم .

و « سعيد » هذا فتى فى ريعان شبابه ، أحب « آمنة » وصارحها بمكنون فؤاده ، فبادلته الفتاة حبا بحب ، ووفاء بوفاء ، وإخلاصا بإخلاص ، وتعاهدا على الزواج عندما يبيع أبوه محصول القطن ، وتمتلىء جيوبه بالمال ولم يكن « ابراهيم » يعرف ما يربط بين قلب « سعيد » وقلب « آمنة » من حب ، وما تعاهدا عليه من زواج ، فلم يجد حرجا فى مصارحته بما كان بينه وبين أبيه من حديث الأمس .

وقد استمر « ابراهيم » على هذه الحال من القلق والتفكير زمنا لايدرى هو ، أطال أم قصر ، وإن كان يدرى أنه كان يعود من عمله ليؤدى صلاة المغرب وصلاة العشاء ثم ينهض إلى فراشه دون أن يجلس إلى أمه ساعة أو بعض ساعة كما هى عادته ، وكانت أمه ترى فى قسمات وجهه أمارات الحزن والشقاء وتسمع فى صوته نبرات اليأس والقنوط . ولكنها ، مع ذلك ، لم تكن تدرك حقيقة ماترى وما تسمع ، !

وتمر أيام وأيام ، ويعود الفتى ذات مرة من عمله ليجد أباه فى البيت ينتظر عودته ، فيسلم ويجلس إلى أبيه وأمه . وتمر فترة من

الزمن ، يصمت فيهم الجميع ، لايدرى الفتى أطالت أم قصرت . وكأن أباه قد أراد أن يخرج من صمته فيقول لابنه وهو يضع بين يديه قلادة وقرطا من ذهب « هذه « شبكة » عروسك يابنى » وما أرانا إلا أن ننهض الآن لتقدمها اليها ، فهى وأمها فى انتظارنا

وينظر الفتى إلى أبيه نظرة حائر ، ثم يحول بصره إلى أمه ويهم أن يقول شيئا ، ولكن أباه لايمهله ، ولسانه لايسعفه ، وأمه لايواتيها الحزم فتستمهل زوجها لتأخذ برأى ولدها ، وينهض الجميع إلى بيت « آمنة »

***

بيت ريفى صغير ، فى زقاق ملتو ، أمامه مصباح زيتى كبير ، وفى داخله مصباحان ، حولهما فتيات يغنين ويزغردن . وماهى الأ بعض ساعة ، حتى يدخل محمود وزوجه وابنه ابراهيم ، وتأتى فاطمة أم آمنة وتخوض مع محمود فى حديث لايكاد ينتهى ، وكانت تتحدث اليه بلسانها وعينيها بل وقلبها كذلك وكان ابراهيم يجلس مهموما أو كالمهموم ، ثم تأتى آمنة فى ثوب أنيق رشيق ، وينهض ابراهيم ليزين بالقرط أذنيها ويحيط بالقلادة جيدها؛ ولكنها مع ذلك كانت مهمومة هى الأخرى أو كالمهمومة ، فقد كانت تود أن تزف إلى « سعيد » عروسا كما تعاهدا على ذلك

وتمضى أيام وأيام ولا حديث لشباب القرية سوى ابراهيم وعروسه آمنة ، ولا هم لسعيد إلا أن يفكر كيف يمسح عن جبينه عار الهزيمة ، فتتصل الأسباب بينه وبين آمنة من طريق خفى ويتفقان معاً على مكيدة يقصيان بها ابراهيم عن طريقهما ويحولان بها بينه وبين الزواج منها .

وتمر الأيام كذلك ولاهم لمحمود الا فى التفكير فى الزواج من فاطمة تلك التى سحرته بجمالها الخلاب وبحديثها هذا العذب الساحر فقد أصبحت السبيل الآن أمامه ميسرة معبدة . ومن يدرى لعله لم يفكر فى زواج ابنه ابراهيم من هذه الفتاة الا ليكون ذلك بابا ينفذ منه إلى قلب أمها لتكون زوجا له فى يوم من الأيام

وتمضى الأيام كذلك ، والأسباب متصلة جهارا بين « آمنة و « ابراهيم » من جهة ، وفى الخفاء بينها وبين سعيد من جهة أخرى .

وبينما الجميع كذلك تتصل بينهم الأسباب ، إذ بابراهيم يذهب إلى بيت « آمنة » ليقدم لها هدية أعجبته ، ويجدد مع أمها يوما لزفافه ، ويعجب ابراهيم لأمر آمنة فى هذه الليلة ، فهى معه على غير عادتها ، وهى ترحب به فرحة مرحة ، وهى تتلطف فى حديثها اليه وهى تستمهله كلما أراد أن ينهض وهى تقدم اليه كوبا من شراب يتناوله فرحا مسرورا إذا لم تكن آمنه قد عودته أن تقدم اليه هذا النوع من الشراب ، وإنما هى « القهوة » تقدم اليه فى كل مرة

وماهي الا دقائق معدودات إذ بآمنة التى كانت تستمهل الفتى قليلا ، تستحثه الآن على النهوض . ومالها تستمهله وقد نفذت مكيدتها وتحقق لها ما أرادت وأراد من تحب وتهوى . ومالها لاتستحثه وهى تخشى أن يصيبه سهم القضاء وهو جالس اليها فى دارها .

وينهض الفتى وهو يحس بألم شديد ويسعى إلى داره حيث كان الموت ينتظره؛ وتسأله أمه عمابه، ولكنه لايجيب الا بهذه الحركات التى تدل على أن شيئا يقطع أحشاءه، فهو واقد يتلوى على سريره حيناً، ويغادره حينا آخر، ليستلقى على الأرض ثم يتركها ليطمئن إلى صدر أمه ، تطوقه بذراعيها حتى يفارق الحياة ، أو تفارقه الحياة، وهو يقول « إن آمنة بالأمس بريئة وفية لحبها ، وإن أبى هو الآثم » .

ويرتفع الضحى من الغد ، ولاحديث لشباب القرية وشيوخها إلا موت هذا الفتى البرىء الطاهر ، الذى راح ضحية رخيصة لشهوة أبيه

ويذهب محمود بعدذلك يفتح لابنه ابراهيم باب القبر ، وراحت الحكومة تفتح لآمنة وسعيد باب السجن ، وراح شباب القرية يبكون هذا « الشهيد » الذى سخروا منه بالأمس ، كما راحوا ينثرون على قبره الأزاهير والرياحين .

وراحت أمه تنهض مع الفجر فى كل يوم لتروى بدموعها قبر وحيدها شهيد القرية » .

المنصورة مصطفى أحمد فوده